موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية*

(عبد الوهاب المسيري)

نقد: صخر أبو فخر

من أعظم المصائب على «العقل العربي» أن يكون بعض المشتغلين بقضايا الفكر والتفكير أول من يتنكر للعلم وللحقيقة؛ فقد اطمأن بعض هؤلاء إلى ما لديهم من بدهيات وإلى ما هم عليه من استقرار، فسكنوا إلى معارفهم الموروثة، وقعدوا عن البحث والتدقيق والتحقيق، وانفتلوا عن المعرفة والتبصر إلى يقين زائف وهجعوا إلى نوع من الكسل العجيب حينما كان الأمر يتطلب دراسة اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل.

واليوم، بعد اثنين وخمسين عاماً على قيام إسرائيل، وأكثر من مئة عام على ظهور الحركة الصهيونية، ونحو مئة وثمانية عشر عاماً على بداية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ما يزال «العقل العربي» مشغولاً بجمع الحقائق عن اليهود وعن إسرائيل من غير أن يرتقي بها إلى مصاف الحقيقة العلمية. وهذه الحال هي إحدى علامات العياء في الفكر العربي المعاصر. ويتجسد هذا العياء بالانصراف إلى حشد الأوهام وأنصاف الحقائق وأرباعها، ثم إقامة معمار نظري عليها بحيث تبدو متماسكة ومتينة ويمكن الركون إلى نتائجها.

إن العلم اليوم راح يكتشف، بصبر وأناة، أسرار الكون برمته، ويخوض في مجاهله وأسراره بثبات واقتدار، ويجول، بتسارع مذهل، في رحابه

---

* عبد الوهاب المسيري: «اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد»، دار الشروق. القاهرة، 1999، في ثمانية أجزاء.

المدهشة: من الجينات إلى الاستنساخ إلى المجرات. أما نحن، عموماً، فما زلنا غير قادرين على معرفة حتى هذا الكيان الإسرائيلي الماثل أمامنا منذ اثنين وخمسين عاماً معرفة صحيحة ودقيقة وعلمية. فالكثير مما نعرفه عن اليهود واليهودية وإسرائيل يقع في باب الوهم لا في مضمار الحقيقة. ذلك لأن الحقائق شتى كالرمل بينما الحقيقة إدراك مختلف، فالحقائق كالأرقام تقريباً، مبذولة في الواقع المحسوس ومنثورة لمن يرغب في التقاطها أو اكتشافها. أما الحقيقة فلا توجد في الواقع المباشر البتة، بل إن العقل وحده هو مَن يقوم باستخلاصها وتجريدها وابتداع عناصرها وإعلائها فوق المحسوسات.

دونكم، مثلاً، الأستاذ علي إمام عطية في كتاب «الصهيونية العالمية وأرض الميعاد». فهو يقول: «القرود أصلاً هم اليهود من بني إسرائيل، والقرد الشبيه بالإنسان هو من سلالة اليهود الذين مسخهم الله لما نسوا ما ذُكّروا به من نِعم». وأكثر ما نصادف هذا الضرب من القول في الكتابات التي لا ينفك ينشرها على الناس جماعات أقامت صروح تفكيرها على فرضيات لا يقين فيها مثل «بروتوكولات حكماء صهيون» و«القوة الخفية لليهود» و«المؤامرة اليهودية العالمية»، فجاءت نتائج هذا التفكير زائفة على مثالها وغرارها.

إزاء هذا العياء في الفكر والخطاب لا بد من قدح الشرر في هذا الليل الذي تطاول كثيراً. ولهذا جاءت «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» للدكتور عبد الوهاب المسيري لترسي معالم منهج جديد وثاقب في دراسة اليهود واليهودية. وفي هذه الموسوعة يُسخّف الدكتور المسيري التفكير الاختزالي السائد في الأوساط الثقافية العربية التي لا تزال تلوك مصطلحات مضللة من نوع «العبقرية اليهودية» و«اللوبي الصهيوني الكلي القدرة في الولايات المتحدة الأميركية»، ويطيح مرتكزات التفكير لدى أصحاب التصورات التوهمية وذوي الطريقة التآمرية في تفسير التاريخ، ويفكك أسس النظريات الهلامية ويكشف ضحالتها ثم يقيم، بدلاً من ذلك كله، واستناداً إلى الشواهد الحاسمة والبراهين الساطعة، معماراً نظرياً جديداً يتيح دراسة مشكلات اليهود والصهيونية وإسرائيل دراسة علمية صحيحة. ولعل واحدة من أبرز المشكلات

التي يواجهها التجمع اليهودي في فلسطين هي مسألة الهوية اليهودية حيث السؤال الأبرز الذي لا يكف عن الحضور في الأوساط الفكرية الصهيونية هو: «مَن هو اليهودي؟» والأسئلة الأخرى كثيرة أيضاً: هل توجد هوية يهودية محددة ومميزة وثابتة، أم أن ثمة هويات متعددة؟ هل هناك شخصية يهودية خالصة، أم أن لليهود شخصيات عدة بحسب المجتمعات التي عاشوا فيها واكتسبوا ملامحها وثقافتها ومؤثراتها التكوينية؟ فإذا كانت الجماعات اليهودية، بسبب انفصالها النسبي عن محيطها، اكتسبت هويات متميزة، فإن ذلك لم يكن يعني وجود هوية يهودية عالمية وشاملة، وإنما هويات كثيرة بعدد المجتمعات التي عاش فيها اليهود. فيهود أوروبا الأشكناز كانوا يكتسبون هويتهم، بالتدريج، من خلال إعلائهم شأن «اليديشية»، بينما السفاراد الأسبان اكتسبوا ملامحهم الثقافية من خلال «اللادينو». لكن «اليديشية» كانت معزولة تماماً عن «اللادينو»، بل متصادمة معها حتى عندما اجتمعتا معاً في إسرائيل.

«إن تاريخ المسيحية، ديناً وفلسفة وفكراً، لا يتطابق وتاريخ المسيحيين بحيث يكونان شيئاً واحداً (...). وكذلك تاريخ اليهودية، أكانت عقيدة أم فكراً أم شيعاً وانقسامات، يختلف عن التجارب التاريخية التي خاضتها الجماعات اليهودية» (4: 17). واستطراداً فإن تاريخ اليهودية صار تاريخاً للعقيدة الدينية اليهودية فقط، بينما تاريخ اليهود ليس إلاّ تاريخ الجماعات نفسها. وقد حاولت الصهيونية أن تنكر تعددية الجماعات الهيودية في العالم، وقدمت نموذجاً اختزالياً لليهودي وللشخصية اليهودية، وطوّرت مصطلحات عامة مثل «الدياسبورا» و«الشعب اليهودي» و«يهود المنفى»... إلخ، وهي مصطلحات تفترض التوحد والتجانس، وتخفي التعدد والاختلاف. وواقع الحال أن اليهود شديدو الانقسام حتى في مسألة تعريف اليهودي: هل هو اليهودي بالدم أم اليهودي الإثني أم اليهودي المؤمن أم اليهودي العلماني؟ وبينما كانت الصهيونية تركز على أن اليهود شعب واحد مميز وأن القومية اليهودية ليست إلاّ الصهيونية ذاتها، كانت اليهودية الحاخامية ترسخ النظرة إلى اليهود باعتبارهم شعباً مقدساً منذ البدء.

إشكالية «التاريخ اليهودي»

التاريخ عند اليهود يبدأ من نقطة محددة هي الخلق ثم عهد الله مع إبراهيم، ويتجه بالحتمية نحو نقطة محددة معروفة سلفاً وهي عودة «الماشيح» في آخر الدهر ليرجع باليهود إلى أرض الميعاد ويؤسس حكومته العالمية في صهيون. إن فكرة «الماشيح» هذه، ومثلها جميع أفكار الخلاص المهدوية، تفترض التقدم نحو هدف أعلى حيث يمكن الوصول إلى نقطة النهاية، وعندها ينتهي التاريخ بتدخل مفاجئ للإله ثم يبدأ الفردوس.

لاحظ البعض أن هذا المسار الخطي يشبه، إلى حد بعيد، فكرة التقدم عند ماركس الذي رأى أن المجتمع البشري يسير بقوة الحتمية نحو المجتمع الشيوعي حيث العدالة والمساواة ونهاية الاغتراب الفردي والجماعي، أي الفردوس بالتعبير الديني، وأن ماركس استبدل الإله بالبروليتاريا والماشيح بالثورة والفردوس بالشيوعية. لكن هذه المقارنة سقيمة للغاية؛ فاليهودية، وغيرها من ديانات الخلاص، تؤمن بأن للتاريخ نهاية وهذه النهاية حتمية بفعل إرادة الله. أما ماركس فقد سخر من الحتمية التاريخية ومن الذين كانوا يُرَوجونها، فقد كان يرى أن التاريخ تسيّره «الضرورة» لا «الحتمية»، وأن الثورة خيار تاريخي للطبقة العاملة وليست حتمية تاريخية. كما أن ماركس أعاد الاعتبار للتاريخ باعتباره «العلم الوحيد الذي نعرفه ونعترف به»، ولم يقدم أي تصور لمجتمع إنساني مستقبلي يتوقف عنده التاريخ.

نقيضاً للرؤية الصهيونية وللفكرة اليهودية الحاخامية يعرض الدكتور عبد الوهاب المسيري لمنهجه المتماسك ويقدمه كأداة معرفية نقدية لفهم «اليهود واليهودية والصهيونية»، ولدحض الآراء التي ترى في اليهود شعباً واحداً موحداً. وبهذا النهج يقدم البراهين الثاقبة التي تتحدى الأفكار الصهيونية المعروفة وتبين طبيعتها الاختزالية وزيفها وادعاءاتها. وفي هذا السياق يستبعد المؤلف المصطلحات التي تفترض وحدة التاريخ اليهودي أو التي تشير إليها مثل «العبقرية اليهودية»، وهو يختار عبارة «الجماعات اليهودية» كمصطلح يتضمن خضوع اليهود، أفراداً وجماعات، للآليات التاريخية التي يخضع لها

أعضاء المجتمعات التي يعيش اليهود في كنفها (4: 16). وهو يرفض وجود تاريخ يهودي مستقل عن تواريخ الشعوب والأمم التي يعيش اليهود بين ظهرانيهم، ويستعيض عن عبارة «التاريخ اليهودي» بمصطلح «تاريخ الجماعات اليهودية» أي تاريخ كل جماعة يهودية معينة في إطار البلد الذي تعيش هذه الجماعة فيه، كما أنه يستخدم عبارة «التركيب الجيولوجي التراكمي» ليشير إلى عدم التجانس الذي تتسم به اليهودية كنسق ديني؛ فهي ليست كياناً عضوياً متماسكاً، والعهد القديم ليس إلاّ تراكم لمصادر شتى ذات أساليب متعددة ولغات مختلفة وعقائد متنافرة. فاليهودية، بهذا التصور، ليست عقيدة معيارية إنما هي «تركيب جيولوجي تراكمي يحوي في داخله طبقات عقيدية مختلفة ومتناقضة، بعضها يقترب من الشرك الصريح وبعضها يصل إلى التوحيد الكامل» (4: 27)، كما أنها ديانة لا معيار لها، فمن الممكن أن يكون المرء يهودياً وملحداً في آن؛ فريسي يؤمن بالبعث واليوم الآخر أو صدّوقي لا يؤمن باليوم الآخر. المعيار الوحيد هو «عصبية القوم»، فاليهودي هو مَن ولد لأم يهودية.

يلاحظ الدكتور عبد الوهاب المسيري أن ثمة غياباً للنموذج التفسيري المركب في فهم اليهود واليهودية، ولهذا فهو ينطلق مما أسماه «النموذج المعرفي التحليلي المركب» (4: 35) الذي يرفض الاختزال والعمومية والخضوع لإمبريالية المقولات الغربية (4: 27) التي نزعت اليهود من سياقهم الحضاري والتاريخي والإنساني ومالت نحو اختزالهم في صورة نمطية بسيطة، وهو يذهب إلى تفكيك تاريخ الجماعات اليهودية تفكيكاً منهجياً ليعود فيركبه تركيباً علمياً مدهشاً. وعند هذه النقطة تتكشف أمامنا نتائج باهرة تبدو كأنها لم تكن معروفة تماماً لنا من قبل، كأن تستنتج الموسوعة مثلاً أن اليهود شعب متناقص ومندمج بل منصهر بالشعوب الأخرى «فلو لم ينصهروا في مجتمعاتهم لبلغ عددهم مئات الملايين اليوم، إذ كان عددهم في بداية العصر المسيحي يزيد على سبعة ملايين يهودي» (4: 25).

تستبعد الموسوعة من دائرتها بعض أشكال الخطاب العربي التعبوي

الدعائي الذي يركز على طرد الفلسطينيين من أراضيهم، والخطاب القانوني الذي لا همّ له إلاّ مراكمة قرارات الأمم المتحدة وطباعتها وتوزيعها، ثم الخطاب الأخلاقي العام. فهذه الأشكال الثلاثة لا تخدم، في النهاية، أي هدف حقيقي في الصراع العام مع الصهيونية. والموسوعة في نقضها التفكير الاختزال الشائع جداً في الأوساط الثقافية العربية تسهم في زحزحة الأسس التي يقوم عليها التصور التآمري للتاريخ، وتتقدم خطوات واسعة جداً نحو إرساء معالم منهج علمي تركيبي في حقل الدراسات اليهودية والصهيونية.

ضروب من التفكير الاختزالي

التفكير الاختزالي، في الأساس، مضاد للتفكير العلمي والنقدي. غير أن شيوع هذا الضرب من التفكير، ولا سيما في الصحافة العربية ولدى بعض المجموعات الثقافية، ناجم عن احتجابه خلف غلالة من الموضوعية. إنه، في الجوهر، فكر مراوغ يتلبس «وهم الموضوعية». ومعظم الكتاب العرب الاختزاليين يأتون بحقائق موضوعية ووقائع ثابتة حدثت حقاً تحت سمع الناس وأبصارهم، فهم لا يختلقون الحقائق بل يجتزءونها. لكن هذه الحقائق، في الأصل، هامشية وجزئية وتافهة في كثير من الأحيان، ولا علاقة لها بالحقوق الكلية. لهذا تسمى أكاذيب حقيقية (True Lies). وهذا الاختزال شائع جداً في الصحافة والإعلام ولدى فئة واسعة من «الباحثين»؛ فهؤلاء تميل عقولهم إلى تبني الصيغ البسيطة التي لا تحتاج بحثاً وإنعام نظر وإرهاق بصر وتفتيشاً وتقميشاً. وفي هذا السياق ثمة فرضية رائجة جداً في صفوف الكتّاب العرب الذين يتنطحون للكتابة عن اليهود تقول أن هناك تماثلاً كاملاً بين النص المقدس وسلوك الفرد والجماعة. وهذه الفرضية بسيطة وساذجة واختزالية، «فمن المحال أن نفهم سلوك اليهود وآلامهم وأشواقهم وخيرهم من شرهم من الداخل، أي بالعودة إلى كتبهم المقدسة (التوراة والتلمود) أو شبه المقدسة (القبالاة) أو غير المقدسة (بروتوكولات حكماء صهيون) أو بالعودة إلى تصريحات الصهاينة وغيرهم (المقدمة: ص 36)، تماماً مثلما لا نستطيع أن نفسر أنماط السلوك لدى العرب وخياراتهم الفكرية والسياسية استناداً إلى القرآن

والسنّة والفقه والتفاسير والمرويات. فهذه الطرائق تشير إلى ضروب من الجهل وعدم المعرفة والسطحية، وهي شائعة جداً في أوساط ثقافية عربية ذات حضور في الصحافة والإعلام والمنتديات.

لنضرب مثلاً على مدى عقم النتائج التي من المتوقع أن نصل إليها لو اعتمدنا النصوص الدينية وحدها لمعرفة الآخر. إن أكثر من 80٪ من يهود الولايات المتحدة ودول الاتحاد السوفياتي السابق لا يطبقون أياً من قوانين الطعام اليهودية، بل هم يأكلون لحم الخنزير. وثمة 4٪ فقط هم مَن يطبق قوانين الطعام (5: 210)، وأن 50٪ من يهود العالم لا يؤمنون بالدين اليهودي، ومن هؤلاء مَن ليس له عقيدة أخرى وبعضهم لا يؤمن بإله على الإطلاق (5: 318)، أما اليهود الأرثوذكس فلا يشكلون أكثر من 10٪ من يهود العالم (5: 319). وفي إحصاء جرى سنة 1987 قرر 84٪ من الإسرائيليين أنهم لم يقرأوا التلمود ولم يطلعوا على أي جزء منه (5: 130)، حتى أن مارتن بوبر، وهو أهم مفكر ديني يهودي في العصر الحديث ومن كبار مفسري العهد القديم، لم يرَ التلمود إلاّ عندما تلقاه هديةً في عيد ميلاده الستين وهو لم يقرأه البتة. والمعروف أن غالبية يهود بيروبيجان ملحدون، كما أن الحاخام الذي يشرف على إقامة الشعائر لهم يؤمن بالمسيح ويستخدم الإنجيل في الصلوات (4: 76). ويتداول اليهود بينهم مصطلح «الإبادة الصامتة» الذي يشير إلى معدلات الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود. و«تصل هذه النسبة إلى أكثر من 52٪ من جملة الزيجات في الوسط اليهودي خارج إسرائيل. ولوحظ أن 90٪ من أبناء هذه الزيجات المختلطة في دول الاتحاد السوفياتي السابق اختاروا ألاّ يتم تصنيفهم يهوداً» (2: 89).

وأبعد من ذلك، فإن نقد العهد القديم ونقض اليهودية لم ينجزهما مسيحيون من عيار فولتير أو مونتسكيو أو برتراند راسل مثلاً، بل قام به يهود أولاً وأخيراً، فقد كان باروخ سبينوزا أول من نقض العهد القديم وكشف أسطوريته وعدم تاريخيته. ومثله فعل كارل ماركس باليهودية ثم سيغموند فرويد. واليهودية الإصلاحية نفسها، هذه الحركة الكبيرة والمهمة في الوسط

اليهودي، رفضت فكرة العودة الشخصية للماشيح المخلّص وأحلّت فكرة العصر المشيحاني، وهي فكرة تربط العقيدة المشيحانية بروح العصر. فالعصر المشيحاني هو العصر الذي سيحل فيه السلام والكمال ويأتي بالخلاص إلى الجنس البشري كله وينتشر العمران والإصلاح ويتم هذا كله من خلال التقدم العلمي والحضاري (5: 374). حتى أن الصهيونية نفسها، واليهودية المحافظة معها، ترى أن كتب اليهود المقدسة ليست أكثر من فلكلور قومي للشعب اليهودي.

لم يكن للكتب الدينية المقدسة لدى اليهود شأن كبير وحاسم في الضمير الجمعي اليهودي. فدراسة التلمود كانت مسألة شاقة للغاية تتطلب معرفة اللغتين العبرية والآرامية. ولم يكن يقرأ التلمود إلاّ أعضاء النخبة التي تعلمت في المراكز الدينية. حتى أن صغار الحاخامات البعيدين عن المدارس التلمودية العليا لم يكونوا ليعرفوا ما جاء فيه. فالتلمود كان دائماً كتاب الأرستقراطية الحاخامية، فهو مكتوب بأسلوب مركب وبلغة لا يعرفها الناس، لذلك انصب عداء الحركات اليهودية الجديدة كالصوفية والمشيحانية والقرائية على معاداة التلمود ورفضه.

واليوم ما زال بعض الكتبة العرب، كلما أراد أن يتحدث عن اليهود تراه يعود إلى نصوص متفرقة من التلمود ليقيم منها عمارته الخطابية المتهاوية. وللعلم فإن التلمود لم يُترجم إلى العربية حتى الآن، وبعض الفقرات المترجمة التي يجدها البعض متناثرة هنا وهناك ليست إلاّ ملتقطات من بطون الكتب، لا تقيم أوداً ولا تغني من جوع.

الأوهام الخمسة

فشلت جميع الدراسات العربية في الإجابة عن السؤال التالي: لماذا ظهرت الصهيونية في شرق أوروبا لا في غرب أوروبا؟ وبالطبع، فإن الكثير من هذه الدراسات لم يلتفت ألبتة إلى هذا السؤال وإلى أسئلة جوهرية أخرى مماثلة. لقد انصرف معظم الذين كتبوا في الشأن اليهودي إلى حياكة أوهام

شتى عن اليهود ما تزال، حتى اليوم، شائعة حتى لدى النخب الفكرية في العالم العربي.

على أن أبرز ما يقدمه الدكتور عبد الوهاب المسيري في هذه الموسوعة هو دحضه ونقضه وتسخيفه الكثير من هذه الأوهام والتي يمكن الإشارة إلى خمسة منها وهي الأكثر شيوعاً في الكتابات الاختزالية العربية:

1 ـ العبقرية اليهودية (2: 4)

فكرة «العبقرية اليهودية» واحدة من الخرافات الشائعة والتي لا تنفك الدعاية الصهيونية تروجها بلا كلل حتى دخلت سرائر الناس واستوطنت مفاهيمهم ثم صارت إحدى محطات اليقين في أفكارهم ومعتقداتهم. فالعبقرية، على العموم، مرتبطة بالنسق الحضاري لشعب من الشعوب وبالبنية الذهنية للمجموعة البشرية بحيث يمكن أن تظهر عبقريات عدة في هذه المجموعة أو تلك أكثر من ظهورها في مجموعة أخرى. واليهود كمجموعة بشرية أقلوية تنطبق عليهم قوانين الاجتماع والتاريخ تماماً. لهذا لم يظهر عباقرة بين اليهود العرب أو الفرس أو الهنود أو الأثيوبيين ولم يظهر عباقرة بين يهود الأرجنتين وجنوب إفريقيا والبرازيل وتركيا وتشيلي والأوروغواي والمكسيك وفنزويلا وأذربيجان، وفي هذه الدول جوال يهودية غير قليلة العدد تتراوح بين 40 ألفاً و220 ألفاً.

لم يلعب اليهود أي دور في نشوء الحضارة الإنسانية، فلا وجود لهم في الحضارة المصرية القديمة أو في الحضارتين الرومانية والإغريقية، ولا حتى في الحضارة العربية. ففي التاريخ العربي اشتهر اليهود بالطب والصيدلة والتجارة والربا، ولم يظهر بينهم شاعر كبير أو فيلسوف أو كاتب ذو اعتبار حتى أن موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد، اشتهر، في الأساس، كطبيب لصلاح الدين الأيوبي لا كفيلسوف. أما في العصور الوسطى الأوروبية فلم يظهر مفكر يهودي واحد أو رسام أو أديب أو شاعر. ومع صعود الرأسمالية وترقي أحوال اليهود وانتشار أفكار المساواة والتنوير نبغ بعض اليهود لا بسبب

يهوديته بل على الرغم منها. فأهم ثلاثة عقول نقدت اليهودية وكادت تجتث أصولها الإيمانية والمعرفية من الجذور هي يهودية خالصة: سبينوزا وماركس وفرويد. والواضح أن سبينوزا السفارادي ظهر في هولندا مهد الرأسمالية الحديثة، وماركس الأشكنازي ظهر في ألمانيا وهي واحدة من كبرى الرأسماليات الحديثة.

2 ـ تهمة الدم (2: 359 ـ 362)

لم تقتصر تهمة الدم على اليهود فقط، فقد اتهم بها الغجر في أوروبا أيضاً. وساق الصينيون سنة 1870 مثل هذه التهمة ضد المبشرين المسيحيين. والأمر نفسه شاع في مدغشقر سنة 1891 في مواجهة الإرساليات التبشرية. ويُقصد بـ «تهمة الدم» أن اليهود يحتاجون دم طفل أو شاب مسيحي لاستخدامه في صنع «الماتسوت» وهو فطير الفصح اليهودي. وتعود هذه التهمة، في منشئها، إلى منتصف القرن الثاني عشر عندما برز اليهود في أوروبا كمرابين نشطين فتحولوا، في المخيلة الشعبية وفي لغة العامة، إلى «مصاصي دماء». وساعد في رسم هذه الصورة مخزون الذاكرة المسيحية المملوء بالعداوة لليهود بصفة كونهم قتلة المسيح. لكن هذه التهمة ما لبثت أن راجت كثيراً في ألمانيا ابتداءً من سنة 1247 فصاعداً، وسرت في النفوس سرياناً كبيراً ما دعا البابا إينوسنت الرابع إلى نفي هذه التهمة عنهم وهو المعروف بعدائه الشديد للتلمود وللتعاليم التلمودية.

والحقيقة أن التوراة والتلمود يحظران على اليهودي في أثناء الاحتفال بعيد الفصح (بيساح بالعبرية) ملامسة أي جسد ميت. واليهود، كالمسلمين، يعتبرون الدم نجساً، ولا يجوز مسه في احتفالات الفصح وفي بضع الأعياد الأخرى، ولا يجوز أكله في سائر الحالات سواء أكان هذا الدم يهودياً أم غير يهودي. أما فطير الفصح اليهودي فلا يدخل فيه أي شيء حتى الخمائر.

انتشرت هذه التهمة في بلادنا بعد حادثة دمشق التي وقعت سنة 1840 والتي قتل فيها الراهب الفرنسيسكاني توما الكبوشي وخادمه المسلم إبراهيم

عمارة. واتهم يهود دمشق بهذه الجريمة بحجة استخدامهم دماء الضحيتين في طقوسهم الدينية. وقد قبض على بعض وجهاء اليهود المحليين فمات اثنان منهم في أثناء التحقيق وأشهر واحد منهم إسلامه وحكم على الباقين بالإعدام.

وهذه الحادثة كانت، في الحقيقة، تعكس صراعاً وتنافساً بين اليهود الذين تمتعوا، وقتذاك، بالحماية الإنكليزية، والكاثوليك الذين تمتعوا بالحماية الفرنسية. وثبت في التحقيقات أن التهمة سيقت بتحريض من القنصل الفرنسي في دمشق. وفي نهاية التحقيق الذي رافقه تدخل القناصل سقطت التهمة عن المحكوم عليهم بالإعدام وأصدر السلطان عبد المجيد فرماناً وصف فيه تهمة الدم بأنها غير صحيحة واعتبرها قذفاً في حق اليهود يوجب إقامة الحد.

وفي أي حال لو كانت تهمة الدم صحيحة فإن حوادث كثيرة من هذا النوع كانت وقعت في فلسطين حيث عاشت جالية يهودية كبيرة مقارنة بالجوالي اليهودية في بعض الدول العربية الأخرى. وكانت ستقع أكثر بعد قيام دولة إسرائيل حيث صار لليهود منعة وسطوة على مليون عربي يعيشون، اليوم، تحت سلطتهم. غير أن الوقائع في فلسطين، قبل النكبة سنة 1948 وما بعدها، لم تسجل جريمة واحدة من طراز جريمة الدم.

3 ـ المؤامرة اليهودية الكبرى (2: 368 ـ 370)

الإيمان بوجود مؤامرة عالمية منذ بدء التاريخ هو ضرب من التفكير الساذج لا يقيم أي اعتبار للحقائق التاريخية والاجتماعية. فأصحاب هذا الإيمان يرون أن لليهود طبيعة ثابتة لا تخضع لقوانين الاجتماع ومسارات التاريخ، فهم أشرار بشعون ماكرون، أو قرود وخنازير ممسوخة، هكذا كانوا منذ وجدوا وسوف يستمرون على هذه الشاكلة أينما حلّوا. وفكرة «المؤامرة اليهودية» تقوم على الزعم بأن ثمة مخططاً جباراً وضعه اليهود من زمن بعيد للسيطرة على العالم كله؛ فهم الذين صلبوا المسيح وهم الذين دسّوا السم

للنبي محمد وهم الذين دبّروا مؤامرة عبد الله بن سبأ للقضاء على الإسلام وهم الذين سرّبوا الإسرائيليات إلى التاريخ الإسلامي وهم المشهورون بذبح الأطفال لاستخدام دمائهم في فطير الفصح! وهم وراء أشكال الانحلال المعروفة في العصر الحديث، وهم أسسوا الماسونية والبهائية والقاديانية، وكانوا وراء الرأسمالية الجشعة والشيوعية البشعة، وهم يتحكمون بالإعلام العالمي، فحتى هتلر لم يكن سوى ألعوبة بأيديهم، وهم الذين استغلوا بريطانيا العظمى لإصدار وعد بلفور، وهم يستغلون اليوم الولايات المتحدة الأميركية ويسخرونها لخدمتهم بواسطة اللوبي اليهودي. لكأن الصهيونية فكرة مستقلة عن التاريخ وقوانين الاجتماع وليست مرتبطة بظهور الرأسمالية وبمشاريعها للهيمنة على الأسواق وبعض مناطق العالم ومنها منطقتنا بالذات. لماذا، إذن، لم تظهر الصهيونية إلا في أواخر القرن التاسع عشر ولم تظهر في أواخر القرن الثاني عشر مثلاً بعد حرب الفرنجة الذين ارتكبوا في أثنائها مذابح كبيرة ضد الجماعات اليهودية في غرب أوروبا ووسطها؟ ومع ذلك لم يحمل اليهود أمتعتهم وأكياسهم ليتجهوا إلى أرض الميعاد، بل كانوا ينتقلون من بلد إلى بلد ويحطون رحالهم في بولندا وروسيا وجوارهما، واكتسب اليهودي خلال هذه الطواف، صورة «اليهودي التائه» المعروفة.

إن النظرة التآمرية لا تختلف، البتة، عن نظرة الصهيونية نفسها التي تروج مقولة التفوق اليهودي والجوهر الثابت للشخصية اليهودية منذ يعقوب حتى اليوم. ثم إن الترويج للفكرة الشائعة عن وقوف اليهود وراء الحركات الانحلالية والعبادات الغريبة والعجيبة مثل عبادة الشيطان وتخطيطهم للقضاء على الديانات الأخرى كالمسيحية والإسلام فيه الكثير من التخليط والادعاء والجهل. فتايلاند اليوم هي عاصمة البغاء في العالم، ولا يوجد فيها، على الراجح، يهودي واحد. والهندوس والصرب والكروات ليسوا يهوداً بل هم معادون لليهود فعلاً، لكنهم تذابحوا مع المسلمين لأسباب تتعلق بخصوصيات بلدانهم وتشققاتها الطائفية والقومية وغيرها.

4 ـ بروتوكولات حكماء صهيون (2: 371 ـ 374)

يستسهل الكثير من الكتاب، عندما يتعرضون للبنية الذهنية لدى اليهود أو حتى عندما يتحدثون عن المسلك اليهودي، أن يستشهدوا ببروتوكولات حكماء صهيون. إن هذه البروتوكولات الشديدة الشيوع والانتشار ليست وثيقة يهودية يتيح لنا استخدامها تحقيق معرفة أيضاً عن اليهود أو حتى تأمين مكاسب إعلامية في صراعنا ضدهم، إنما هي وثيقة روسية صرفة نشرها، للمرة الأولى، سنة 1905 باللغة الروسية كاتب روسي يدعى «سيرغي نيلوس» ادعى أنه تسلم المخطوط سنة 1901 من صديق له حصل عليه من مدام (ك) ادعت بدورها، أنها سرقته من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا، ثم عاد «سيرغي نيلوس» نفسه ليقول أن هذه المرأة المجهولة حصلت على المخطوط من رئيس البوليس السري الروسي في فرنسا، وأن هذا الأخير سرقه من أرشيف المحفل الماسوني. وانتقلت هذه البروتوكولات إلى غرب أوروبا سنة 1919 واستند إليها الألمان في تبرير هزائمهم في ما بعد.

مهما يكن الأمر، فإن البحث الرصين في تاريخ البروتوكولات توصل إلى أن هذه البروتوكولات صاغتها المخابرات الروسية القيصرية للنيل من الحركات الثورية الليبرالية ومن اليهود معاً، وتمكنت المخابرات من تسريبها إلى الصحف ووسائل الإعلام بطريقة محكمة. وصار مؤكداً أن هذه البروتوكولات تحتوي اقتباسات حرفية ومطولة من كتاب «حوار في الجحيم بين ميكافيلي ومونتسكيو» الذي نشره الكاتب الفرنسي «موريس غولي» في بروكسل سنة 1864 ليسخر من نابليون الثالث. لكن الذين صاغوا البروتوكولات حولوا الحوار إلى مؤتمر والفيلسوف إلى مجموعة حكماء. وبعد المقارنة وجد الكثير من الفقرات الواردة في البروتوكولات مقتبسةً بالحرف من كتاب «حوار في الجحيم». وثمة، أيضاً، إشارات إلى المصدر الروسي لهذه البروتوكولات منها ما يلي:

1 ـ بما أن البروتوكولات نص سري، بل فائق السرية، فلماذا لم تكتب بالعبرية مثلاً بدلاً من كتابتها بالروسية وهي لغة شديدة الشيوع في أوروبا

في القرن التاسع عشر؟

2 ـ لا يوجد في البروتوكولات أية كلمة عبرية أو ييديشية.

3 ـ البروتوكولات كلها دفاع عن الأرستقراطية وعن الحكم المطلق ونظام التوريث الملوكي، وهجوم على الليبرالية والاشتراكية والماسونية. وهذا الثالوث كان ألد أعداء النظام القيصري آنذاك.

في أي حال، فإن الاستناد إلى البروتوكولات في الإعلام العربي الخارجي يفقده الصدقية وقوة الإقناع لأن البروتوكولات تعتبر مجرد كتاب غير صحيح لا علاقة له بالحقائق والتاريخ. أما ترويج البروتوكولات في الإعلام العربي الداخلي فلا أحسبه يخدم الصراع مع إسرائيل لأنه يرسخ لدى الكثيرين فكرة التفوق اليهودي وينسب إليهم قدرات خارقة ويساعد السلطات العربية في تبرير عجزها بذريعة هذه القدرات وبحجة «المؤامرة اليهودية» المعهودة.

5 ـ اللوبي اليهودي والصهيوني (6: 350 ـ 356)

يوجد في الولايات المتحدة الأميركية العديد من قوى الضغط والكتل والمصالح الكبرى واليهود ليسوا الأقلية الوحيدة الضاغطة على مؤسسات صنع القرار، فثمة لوبي إرلندي قوي ومقتدر جداً، وهناك لوبي إيطالي وآخر يوناني وجماعات ضغط دينية واقتصادية ونقابية وغيرها.

إن مكانة إسرائيل لدى الولايات المتحدة هي التي تقرر قوة اللوبي اليهودي فيها وليست قوة اللوبي اليهودي هي التي تقرر سياسة الولايات المتحدة تجاه إسرائيل كما يزعم بعض الكتبة من السذج.

كان دور اللوبي اليهودي يتعزز، كلما ازداد «الرباط الحيوي» الذي يجمع الولايات المتحدة إلى إسرائيل، متانةً وثباتاً. وبات واضحاً أن هذا اللوبي يستمد قوته لا من استقلاله عن الولايات المتحدة بل من خدمته المصالح الأميركية وعمله الدؤوب على مطابقة المصالح الإسرائيلية مع المصالح الأميركية وإعادة صوغ العلاقات الإسرائيلية ـ الأميركية في ضوء المصلحة الأميركية أولاً وأخيراً. والدليل هو أن الولايات المتحدة بادرت إلى

الاعتراف بإسرائيل فور قيامها سنة 1948. وهذا الموقف نابع لا من قوة اللوبي اليهودي الذي كان ضعيفاً جداً في ذلك الوقت بل من المصالح الأميركية نفسها. وهذا ما حدث أيضاً في أوائل القرن العشرين، فقد كان الوجود اليهودي في ألمانيا قوياً جداً قبل الحرب العالمية الأولى وكان اليهود يشغلون مناصب حكومية رفيعة ومنتشرين في مواقع اقتصادية مهمة جداً، والحركة الصهيونية نفسها بدأت في ألمانيا وكانت برلين مقرها الرئيسي، بينما لم يكن يوجد في إنكلترا انتشار كبير لليهود بل عاشت فيها جماعة يهودية صغيرة جداً بلا فاعلية أو تأثير. ومع هذا نجح الصهيونيون في إنكلترا في استصدار إعلان بلفور سنة1917 بينما فشلوا في ألمانيا على رغم قوتهم. وكان الوزير البريطاني الوحيد الذي عارض إعلان بلفور هو الوزير اليهودي أدوين مونتاغو. والسبب واضح، فهو لا يعود إلى القوة الاقتصادية أو المالية لليهود أو إلى ثرائهم المزعوم بل إلى أن الصهيونية وضعت مشروعها، وقتذاك، في خدمة الإمبريالية البريطانية التي كانت تطمح إلى وراثة الدولة العثمانية، في حين أن الإمبريالية الألمانية كانت متحالفة مع الدولة العثمانية وكان مشروعها غير متصادم مع الآستانة ومع مصالحها في المنطقة العربية.

إن اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة لا يمثل قوة اقتصادية كبرى كما يشيع لدى عوام الكتبة والصحافيين والسياسيين. فاليهود يغيبون، بالكامل تقريباً، عن الصناعات الثقيلة في الولايات المتحدة، فلا وجود لهم في صناعات الفحم والصلب والنفط والسيارات والسفن ووسائل المواصلات. وهم يتركزون في المهن الحرة كالطب والهندسة والقانون والتدريس في الجامعات وشركات التكنولوجيا المتقدمة والفنادق والسينما والكازينوهات وكمضاربين في عالم المال والعقارات. أما في قطاع المصارف فلا يشغل اليهود مناصب عليا إلا في خمسة مصارف أميركية كبرى، بينما يبلغ عدد المصارف العملاقة أكثر من خمسة وأربعين مصرفاً. وهذا الانتشار، فضلاً عن ثراء الكثيرين منهم، هو الذي يعطيهم حضوراً إعلامياً واجتماعياً وسياسياً براقاً ولامعاً.

لسنا، بالطبع، معنيين بتفنيد جميع الذرائع والأفكار التي يسوقها بعض

الكتبة ممن لا يملكون دراسة أو خبرة أو معرفة بشؤون اليهود والصهيونية وإسرائيل. غير أن واحدة من أكثر هذه الأفكار جهلاً بحقائق الأمور تزعم أن اليهود يسيطرون على القرار الأميركي ويوجهون السياسة الأميركية لخدمة اليهود وإسرائيل. ومن المؤسف أن هذا الزعم يجد قبولاً لدى الكثير من السياسيين والكتّاب والباحثين بحيث صار يقيناً ثابتاً شديد الشيوع. إن الوقائع الحية والقريبة تدحض، تماماً، هذا الزعم. فالولايات المتحدة عاقبت إسرائيل بشدة في العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 لأن مصالحها كما رآها الرئيس أيزنهاور (نظريته في الأمن وملء الفراغ) اقتضت ذلك، ولم تلتفت إلى مصالح إسرائيل كما رآها دافيد بن غوريون يومها. وإسرائيل نفسها لم تستطع أن تشن حرب حزيران 1967 إلاّ بموافقة أميركية صريحة وبإذن منها لا لبس فيه. وبالموافقة الأميركية المكشوفة شنّت إسرائيل، أيضاً، حرب حزيران 1982 على لبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية وسورية. وعندما رأت الولايات المتحدة أن مصلحتها تكمن في عدم اشتراك إسرائيل في حرب الخليج سنة 1991 أجبرتها على الإذعان ومنعتها حتى من التصدي للصواريخ العراقية. وقبل ذلك ألزمتها وقف مشروع طائرة «لافي» الشديد الأهمية للصناعة العسكرية الإسرائيلية والذي جاء إلغاؤه ضربة قاسية لهذه الصناعة الحيوية.

وتقدم حادثة الجاسوس جوناثان بولارد أسطع الدلائل على مدى السيطرة الأميركية على إسرائيل حينما تتعارض مصالحها أو تتصادم في بعض الحالات القليلة. فقد أنزلت المحكمة العسكرية الأميركية عقوبة صارمة وقاسية بحق هذا الضابط الأميركي اليهودي الذي تجسس لحساب دولة صديقة جداً ولصيقة جداً بالولايات المتحدة وبمصالحها، ولم تشفع له تدخلات إسرائيل نفسها في تخفيف العقوبة أو في إصدار عفو عنه. وفي أثر هذه الحادثة أعيد التفتيش في ملفات كبار الموظفين اليهود في البيت الأبيض وفي وزارة الخارجية والجيش والأمن، وجرى نزع التصريح الأمني من أحد كبار الموظفين اليهود في وزارة الخارجية لأن ثلاثة من أبنائه يعيشون في إسرائيل، ثم أحيل على التقاعد بهدوء. ولم يحتج اللوبي اليهودي على هذا الإجراء قط. ولو حدث هذا الأمر في دولة أخرى غير الولايات المتحدة الأميركية

لاعتبر هذا القرار معادياً للسامية، وكنا قرأنا مئات المقالات الاحتجاجية وسمعنا مئات البرقيات المنددة بهذا التصرف.

ماذا قال المسيري في الموسوعة؟

انسجاماً مع رؤيته لليهود باعتبارهم جماعات وظيفية، حيث أن لكل جماعة تاريخها الخاص في سياق تاريخ كل بلد على حدة، ركز المؤلف، في هذه الموسوعة، على تواريخ الجماعات اليهودية في العالم القديم وعلاقاتها بالشعوب المحيطة بها كالأشوريين والبابليين والمصريين والشعوب «السامية» الأخرى، ثم تحدث عن تواريخ الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي من الشرق الأدنى القديم حتى إسبانيا وفارس. ثم عرّج، بالتفصيل، على تواريخ الجماعات اليهودية في بلدان الغرب لينتقل، انتقالاً مترابطاً، إلى اليهودية في علاقاتها بالشريعة الشفوية (التلمود) وبالحلولية والغنوصية والصهيونية. ثم راح يتكلم على المفاهيم والعقائد الأساسية فيها كالإله والأرض والشعب والكتب المقدسة والقبالاه والصلوات والأعياد والماشيح والفرق الدينية المنبثقة منها، ثم على علاقة اليهودية بكل من المسيحية والإسلام. ولم يكتفِ بذلك بل أضاء الكثير عن الحسيدية واليهودية الأرثوذكسية واليهودية المحافظة والإصلاحية والعبادات الجديدة التي أدرج الماسونية والبهائية في سياقها.

وكان أن أفرد المجلد الأول من هذه الموسوعة ليضم الإطار النظري العام. أما المجلدان الثاني والثالث، فقد تناول فيهما المشكلات العامة المتعلقة بدراسة الشأن اليهودي. وأفاض، في المجلد الرابع، في الكلام على تواريخ الجماعات اليهودية كلاً على حدة وبحسب التوزع الجغرافي لها. وخَصَّ المجلد الخامس باليهودية، والمجلد السادس بالصهيونية، والمجلد السابع بإسرائيل، وتضمن المجلد الثامن الفهارس وملحقاً بالمفاهيم والمصطلحات وساهم في هذه الموسوعة أربعة وعشرون باحثاً أبرزهم: جلال أمين ونظام بركات وعزمي بشارة وخالد الحسن وعادل حسين وجمال حمدان وأحمد صدقي الدجاني وحامد ربيع وسمير فريد وفهمي هويدي ومحمد

حسنين هيكل وعبد القادر ياسين.

لا تدعي هذه الموسوعة الشمول والكمال والموضوعية التامة ولا المقدرة التفسيرية الشاملة القاطعة، إنما هي «محاولة اجتهادية لتفسير أكبر قدر من جوانب الظواهر اليهودية والصهيونية» (1: 141). وفي هذه المحاولة يزحزح الدكتور عبد الوهاب المسيري المسلمات من رسوخها. فحينما يتناول مصطلح «الشعب اليهودي» مثلاً يستنتج أن لا وجود لشعب يهودي في التاريخ، كما يشير إليه المصطلح، ويرفض وجود وحدة عضوية بين اليهود ثم يتساءل: «ماذا يجمع يهود الصين في القرن الرابع عشر ويهود الولايات المتحدة في القرن العشرين؟» (1: 43). وهو يرى «أن الصهيونية ليست حركة ذات جذور يهودية وإنما حركة ذات جذور غربية استعمارية تهدف إلى تخليص أوروبا من اليهود عن طريق توطينهم في فلسطين» (1: 136)، ويستنتج أن أرثر جيمز بلفور الذي أصدر إعلانه المشهور في 2/ 11/ 1917 معادٍ لليهود لأنه رغب في تهجيرهم، تماماً مثل ألفريد نوسيج الذي شارك تيودور هيرتزل في تأسيس الحركة الصهيونية ثم امتد به العمر ليقدم إلى الغستابو، في أثناء الحرب العالمية الثانية، مخططاً لإبادة يهود أوروبا.

تلفظ الموسوعة الفكرة الرائجة والساذجة التي تحاول أن تدحض الصهيونية بنفي سامية اليهود الأوروبيين وإعادتهم إلى أصول خزرية تركية، فيقول: «لم تعد هذه نقطة مهمة في الأدبيات الصهيونية باعتبار أن الصهاينة يؤسسون نظريتهم في الحقوق لا على أساس عرقي وإنما على أساس إثني وعلى أساس الأمر الواقع»(2: 100). وتحرص الموسوعة على إبقاء المصطلحات الإسرائيلية في منطوقها العبري، وفي ذلك وقوع في أسر المصطلح الصهيوني. ويحتج قائلاً: لماذا نترجم عبارة Conservation Party إلى «حزب المحافظين» بينما نترك مصطلحات مثل «الليكود» و«المعراخ» و«أحدوت هاعفودا» و«الموشاف» و«الكيبوتس» على حالها؟ ثم يصحح بعض الترجمات الخاطئة فيشير إلى أن مصطلح Anti Semitisn ليس معاداة السامية، كما يترجم حرفياً، بل يجب ترجمته إلى معاداة اليهود، وأن «الهولوكوست»

ليست إبادة اليهود بل «الإبادة النازية لليهود».

ماذا نقول نحن؟

1 ـ أرض عسير أم أرض كنعان؟

لا يقيم الدكتور عبد الوهاب المسيري أي اعتبار لنظرية الدكتور كمال صليبي في دراسته المثيرة والمميزة والخطيرة «التوراة جاءت من جزيرة العرب» (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1985)، فهو يقول إن أغلبية العلماء رفضت آراءه (4: 137)، لكنه لم يرشدنا إلى أسماء هؤلاء العلماء وأين نشروا دراساتهم في هذا الشأن. وبحسب علمنا، فإن العديد من الكتّاب والصحافيين هاجموا نظرية كمال الصليبي لدوافع شتى، لكن لا أحد من العلماء العرب بادر إلى تفنيدها أو نقدها أو هز أركانها، وما قرأناه لم يتجاوز الهجوم والشتائم. وفي ما عدا الكاتب السوري فراس السواح في كتابه «الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم» (دمشق: دار علاء الدين، 1989) لم يتصدّ باحث لهذه النظرية بالنقص أو الدحض، مع العلم أنها راحت تلاقي قبولاً متزايداً في أوساط بعض الباحثين في التاريخ اليهودي أمثال زياد منى في كتابيه «جغرافية التوراة: مصر وبنو إسرائيل في عسير» (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 1994) و«جغرافية العهد القديم: بنو إسرائيل جغرافية الجذور» (دمشق: دار الأهالي، 1995)، وكذلك الباحث السوري أحمد داود في كتابه «العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود» (دمشق، د .ن.، 1991)، والكاتب اللبناني فرج الله صالح ديب في كتابه «التوراة العربية وأورشليم اليمنية» (بيروت: دار نوفل، 1994).

كان علماء التوراة والمؤرخون عامة لا يختلفون على جغرافية التوراة؛ فجميعهم أعتقد أن حوادثها جرت في فلسطين. لكنهم اختلفوا كثيراً على تفسير النصوص التوراتية نفسها وعلى قراءتها ومدى مطابقتها التاريخ والعلم. حتى جاء الدكتور كمال الصليبي ليفترض أن النص صحيح. وكان عليه أن يبرهن على أن الجغرافيا خطأ. وتوصل، في جملة ما توصل إليه، إلى أن

جغرافية التوراة هي في منطقة عسير في شبه الجزيرة العربية، ولم يناقش، طبعاً، تاريخية النص التوراتي نفسه.

إن التفكير العلمي البسيط يجبرنا، بعد الإشادة بهذه الموسوعة، على الإشارة إلى التالي: إن أي نظرية جديدة أو أي أفكار مبتكرة تبدأ، كما هو متبع في مناهج العلوم، بنقد النظريات التي سبقتها إما لدحضها وإما لتطويرها وإما لتعميقها وتهذيب الزوائد فيها. وكنت أتوقع أن يعمد الدكتور عبد الوهاب المسيري إلى هذا الأمر قبل أن يحكم على نظرية الدكتور كمال الصليبي، لا تلبيةً لرغبة ما أو لهواية ما بل تطبيق للمنهج فقط.

2 ـ يشوع بن نون واحتلال أريحا

أحجمت الموسوعة، في كثير من المواضع، عن نقض الروايات التوراتية المتواترة، لكأن السياق العام يوحي بأن المؤلف يتبنى، أو هو لا يرفض، تاريخية بعض النصوص الدينية اليهودية كما جاءت في العهد القديم. ففي الكلام المسهب على دخول العبرانيين إلى أرض كنعان ثمة، كما يبدو، تسليم بالنتائج التي استقرت عليها آراء المؤرخين الكلاسيكيين. والمعروف أن المدونات المصرية لم تذكر العبرانيين ألبتة ما عدا جملة واحدة للفرعون مرنبتاح بن رعمسيس الثاني جاء فيها: «هلكت إسرائيل ولم يبقَ لها بذر». أما المدونات البابلية فلم تذكر أي شيء عنهم ألبتة. والحفريات التي جرت في موقع تل السلطان بجانب أريحا الحالية دلت على أن أسوار أريحا لم تكن موجودة في العصر المفترض لدخول يشوع بن نون إليها (1300 ق.م)، فهي تحطمت قبله بثلاثة قرون ولم يُعد بناؤها. ونتيجة للحفريات التي أجرتها كاتلين كنيون بين 1952 و1958 ثبت أن أريحا لم تكن آهلة قط في تلك الفترة.

إن سفر يشوع مجرد قصة أدبية خيالية لا قيمة تاريخية لها. ويشوع بن نون نفسه شخصية أسطورية نموذجية بامتياز، فهو إله كنعاني قديم على هيئة سمكة واسمه يعني «المخلص». وربما كان إله الشمس لأن النون تعني عين

السمكة وترمز دائرتها إلى قرص الشمس. وكانت السمكة شعار المسيحيين الأوائل، وهي الرمز الذي نقشه المسيحيون على جدران الكهوف القديمة التي كانوا يلتقون فيها للاجتماع والتعبد، علماً أن تلامذة المسيح كانوا، في معظمهم، صيادي سمك من مدينة طبرية.

3 ـ الإله يهوه

لم تُشِر الموسوعة إلى «يهوه» باعتباره إله البراكين الذي شاعت عبادته في أطراف الجزيرة العربية. وهذا الإله كان يتجلى لموسى في رأس الجبل كجذوة تشتعل ويُظهر ذاته للعبرانيين على هيئة سحابة أو عمود من نار ويسير أمام بني إسرائيل في رحلة التيه المديدة، «فكان إذا وقف العمود فوق الخيمة ينزل الشعب وإذا انتقل نُقلت الخيمة وتبع الجمهور السحابة، وفي الليلة كانت السحابة تتحول عموداً من نار» (خروج 13: 20 و40: 34).

4 ـ النبي إبراهيم

يذكر سفر التكوين أن فرعون مصر أهدى إبراهيم جمالاً بعد قصته مع ساراي أخت إبراهيم وزوجته في آن، فهو يقول: «وصار لإبراهيم غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتُنٌ وجمال». والمعروف أن الجمل الأهلي لم يكن معروفاً في غرب آسيا قبل القرن العاشر قبل الميلاد. إذن فقصة إبراهيم المفترض أنها حدثت قبل 15 قرناً من الميلاد، وربما نشأت في بلاد غير الشام تكثر فيها الجمال كالجزيرة العربية مثلاً. وهذه الإشارة تحيلنا على نظرية الدكتور كمال الصليبي التي يبرهن فيها على أن أحداث العهد القديم جرت في منطقة عسير في شبه الجزيرة العربية.

في أي حال فإن شخصية إبراهيم شخصية لم ينجدنا التاريخ وعلم الأحافير بأي إثبات يؤكد واقعيتها. غير أن مؤلف الموسوعة حاول أن يفسر موقف إبراهيم المستهجن عن توجهه إلى مصر برفقة زوجته ساراي وقوله لها: «إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر (...) قولي إنك أختي ليكون لي

خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك» (تكوين 12: 11 ـ 13)، بأن الرجل في الحضارة الحورانية (لعله يقصد الحرّانية) كان إذا اعتز بزوجته وأراد أن يعبر لها عن حبه جعلها في منزلة أخته (4: 132).

إنه تفسير مهلهل ولا علاقة لهذا الموقف بالاعتزاز البتة، تماماً مثلما حاولت التوراة تفسير سبب انتقال إبراهيم من أور الكلدان إلى كنعان فذهبت إلى أن هذا الأمر حدث بسبب حاجة إبراهيم لشراء مقبرة!

5 ـ الفلسطينيون ليسوا من شعوب البحر

تورد الموسوعة ما يلي: «جاء الفلستيون من بحر إيجه حوالي عام 1194 ق.م» (4: 110)، وتضيف: «ويُعَد الفلستيون الذين استقروا في فلسطين منذ الألف الثاني قبل الميلاد من هذا الأصل» أي من شعوب البحر (4: 109)، وتقول أيضاً: «أنهى داود الهيمنة الفلستية وصرع البطل الفلستي جُليات وأخضع فلستيا» (4: 110).

إن النظرية العتيقة التي افترضت أن الفلسطينيين من أصول كريتية باتت بائدة تماماً. والثابت لدى معظم العلماء، تقريباً، أن الفلستيين (= الفلسطينيون) هم كنعانيون من غرب شبه الجزيرة العربية حيث عبادة الإله «فَلْس» كانت شائعة.

6 ـ إمبراطورية أم قبيلة؟

تذكر الموسوعة أن العبرانيين وجدوا أنفسهم وسط تشكيلات سياسية وحضارية عظمى وإمبراطوريات ضخمة «وحاولوا أن يتكيفوا مع هذا الوضع عن طريق خلق إمبراطورية صغيرة كما هو الحال مع داود وسليمان» (4: 81). والحقيقة أننا نفتقر تماماً إلى أي مدونات مصرية أو أشورية تدل على قيام دولة لليهود في فلسطين فكيف، بالأحرى، قيام إمبراطورية صغيرة. فضلاً عن أن علم الآثار خيب الأمل في مثل هذا الشأن. والراجح أن داود كان زعيماً قبلياً لا تتجاوز تخوم عشيرته الواقعة عند أطراف الجزيرة العربية مرمى

مقلاعه أو نباح كلبه. ثم تصارعت أسباط هذه العشيرة بعد موت ابنه سليمان، فاندثر بعضها ولا سيما على يد صرغون الأكادي سنة 721 ق.م. وهاجرت مجموعات منها إلى فلسطين غرباً ونقلت معها أسماء آلهتها ومواقعها وأطلقتها على المواطن الجديدة. وكانت النهاية الأخيرة على يد نبوخذ نصر في سنة 586 ق.م. الذي سبى منهم ما سبى إلى بابل. ولاحقاً جرى نقل نحو 40 ألفاً من يهود السبي إلى فلسطين بعد انهيار الدولة البابلية وصعود الأخمينيين إلى السلطة. وهؤلاء وجدوا عبرانيين آخرين سبقوهم إلى فلسطين وأطلقوا على مواقعهم أسماء مثل «بنت صهيون» تيمناً بصهيون الأصلية و«بنت أورشليم» بدلاً من أورشليم القديمة.

وتروي التوراة أن يشوع بن نون أباد واحداً وثلاثين ملكاً، وبقي سبعون ملكاً كانوا يلتقطون تحت مائدة أدوني بازق الكنعاني والذين عاد بنو إسرائيل فأبادوهم كلهم. إذن، كان في أرض كنعان، وقتذاك أكثر من مئة ملك (102 بالضبط)، أي أن مساحة كل مملكة 200 كلم في المتوسط إذا اعتبرنا أن فلسطين حينذاك هي نفسها كما تظهر اليوم على الخريطة. وبالطبع، فإن الحال لم يكن على هذا المنوال. ولمزيد من الاستطراد تروي التوراة أن يعقوب جاء إلى مصر ومعه 66 نفساً. وعندما خرج بنو إسرائيل بعد 430 سنة، بحسب التوراة، كان عدد رجالهم 600 ألف حامل سلاح عدا النساء والأطفال والشيوخ أي نحو 3 ملايين نسمة. وهذا يعني، في علم الديمغرافيا، أن معدل ما كانت «تفقسه» المرأة الإسرائيلية حتى انقطاع حيضها 65 ولداً، أي أكثر من الأرانب. وتقول التوراة إن في أرض الميعاد «سبع شعوب أكثر وأعظم منك» (تثنية: 7: 1)، وهذا يعني أن عدد الساكنين في فلسطين، يومذاك نحو 21 مليوناً على الأقل، وهذا من المحال بالطبع. أما كيف سهّل يهوه للعبرانيين طرد هؤلاء الأقوام من أمام الشعب المختار؟ فبالزنابير: «وأرسل أمامك الزنابير فتطرد الحوريين والكنعانيين والحثيين من أمامك» (خروج 23: 28) إنه أشبه بفيلم «الطيور» لألفرد هيتشكوك.

والحقيقة أن لا دليل على وجود بني إسرائيل في مصر غير العهد

القديم، لذلك تعتبر قصة الخروج وحكايات التيه في سيناء من الخرافات المألوفة؛ فهؤلاء الثلاثة ملايين إسرائيلي الذين خرجوا من مصر ماتوا جميعاً قبل دخول الجيل الجديد أرض كنعان (ما عدا يشوع بن نون وكالب بن يفنة). وفي أثناء الأربعين سنة في سيناء وأطراف فلسطين لم تَبْلَ الثياب والنعال قط: «ثيابك لم تَبْلَ عليك ورجلك لم تتورم هذه الأربعين سنة» (تثنية: 8: 4).

إن إخلاء ألف شخص يتطلب عملية لوجستية شديدة التعقيد. فكيف بثلاثة ملايين. ولو افترضنا أنهم كانوا شديدي التنظيم والنظام والانضباط، وأنهم كانوا يسيرون في صفوف متراصة عرض الواحد 20 شخصاً لبلغوا 150 كلم. هذا إذا استثنينا بهائمهم وماشيتهم، فهل كانت مثلهم منتظمة؟ وإذا كانت ألبستهم لم تَبْلَ، فهل كانت ملابس الأطفال تنمو بنمو أجسادهم؟

7 ـ مسألة هيكل سليمان

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: «نحن نشير إلى اليهودية في هذه المرحلة (أي المرحلة الأولى) بعبارة عبادة يسرائيل التي تطورت لتصبح العبادة القربانية المركزية مع تأسيس الهيكل» (4: 49)، ويضيف: «إن أهم آثارهم المعمارية هيكل الملك سليمان» (4: 106)، ثم يقول أيضاً: «حينما شيّد العبرانيون الهيكل اضطروا إلى الاستعانة بفنانين من البلاد المجاورة. ولا يوجد أسلوب عبراني متميز في المعمار، فالهيكل نفسه بُني بالأسلوب الفرعوني الآشري على يد فنانين فينيقيين» (4: 113)، ويحدد أبعاد الهيكل كالتالي: «90 × 30 × 45 قدماً» (4: 116).

إن هذه المعلومات تندرج في سياق الرواية التوراتية وهي، بالتأكيد، غير صحيحة البتة. لندرس أولاً المعلومات إياها وننخلها بغربال النقد الصارم، فماذا نستنتج؟ تذكر التوراة أن سليمان صرف في بناء الهيكل سبع سنين، وقام بالبناء ثلاثون ألف رجل من لبنان و80 ألف رجل كانوا يقطعون الأحجار و70 ألفاً يحملونها و330 رئيس عمال. فالمجموع إذن 183,300 نفر. هؤلاء عملوا

سبع سنين متواصلة كي يبنوا هيكلاً طوله 60 ذراعاً وعرضه عشرون وارتفاعه ثلاثون. والذراع يساوي 52 سم، فتصبح الأبعاد كالتالي: الطول 31 متراً والعرض 10,5 أمتار والارتفاع 15 متراً، أو ما مساحته 325 متراً مربعاً. وهذا مجرد بيت متوسط الحجم مساحته أقل من شقة الحاجّة فيفي عبده على النيل. لكن اليهود البدو كانوا ينظرون إلى الهيكل، لو صح وجوده، كإحدى العجائب. وتستفيض الرواية في مبالغتها أن سليمان ذبح، عند اكتمال البناء 22 ألف بقرة و120 ألفاً من الغنم.

أي محرقة حيوانية هي هذه المحرقة؟ أي خرافة هي قصة هذا الهيكل؟ ثم إن الموسوعة تذكر أن حيرام ملك صور «تحالف مع سليمان» (4: 106). ومهما يكن الأمر فليس ثمة ما يبرهن على وجود ملك كان يحكم صور باسم أحيرام. والإشارة الوحيدة إلى هذا الاسم موجودة في التوراة نفسها. ويخلط البعض بين الرواية التوراتية التي تذكر اسم أحيرام ملك صور والمهندس الصوري الذي ساعد في بناء الهيكل والذي اسمه في المصادر الماسونية بصيغة «حيرام أبي». أما القبر الموجود حتى الآن بالقرب من صور، والذي يعتقد البعض أنه قبر أحيرام، فالأمر مجرد تسمية مجانية مصدرها التوراة ولا سند علمياً لها، تماماً مثلما لم يتمكن اليهود من اكتشاف أي أثر لهذا الهيكل الأسطوري بعد اثنين وثلاثين سنة من احتلالهم القدس سنة 1967، وأكثر من 150 سنة على بداية حملات الاستكشاف في فلسطين. وقد أكد علماء آثار إسرائيليون، استناداً إلى اكتشافات أثرية، أن القدس كانت مدينة مهمة ومتطورة قبل أن يجتاحها العبرانيون قبل ثلاثة آلاف سنة. وأعلن مسؤول دائرة الآثار في القدس جدعون آفني «أن ذلك يغير كل ما نعرفه. فالملك داود لم يبنِ هذه المدينة». وقال عالم الآثار الإسرائيلي روني ريك: «آسف، إن السيد داود والسيد سليمان لم يظهرا في هذه القصة» (السفير، 23/ 7/ 1998).

8 ـ القبالاه اليهودية والإسلام

تذكر الموسوعة أن الزوهار، وهو اسم أهم كتب التراث القبالي، يعود

تاريخه الافتراضي إلى ما قبل الإسلام والمسيحية (5: 181). غير أن المؤلف لم يتطرق، بالتفصيل، لأثر القبالاه اليهودية وكتاب الزوهار في الإسلام. فهو لا يقارن نظرية الماشيح بأفكار الخلاص المهدوية التي شاعت وفشت في بعض الفرق الإسلامية. وهو لا يعير انتباهاً لأوجه التناظر بين المدرسة الرقمية القبالية والمدرسة الرقمية لدى الإسماعيليين والدروز والتي تعود في مصادرها الأبعد إلى مدرسة فيثاغورس الرياضية. كذلك لا يلتفت إلى التوازي بين القبالاه وكتاب «الجفر» لدى الشيعة الإمامية.

وفي جانب آخر، يغفل المؤلف تبيان وجوه التشابه والاختلاف بين «التجليات النورانية العشرة» أي «السفيروت» ونظرية الفيض لدى بعض فلاسفة الإغريق والتي انتقلت إلى الفكر الإسلامي ووجدت حضورها في نظريات الخلق لدى إخوان الصفا والدروز والإسماعيلية «فالإله لا يخلق العالم من عدم» (5: 66).

9 ـ البهائية والماسونية

يرى مؤلف الموسوعة في البهائية والماسونية ضرباً من العبادات الجديدة الجاذبة لليهود، ولاحظ أن إقبال اليهود والإسرائيليين على هذه العبادات هو «تعبير عن ضعف العقيدة اليهودية وعن تزايد الإحساس بالاغتراب نتيجة لتزايد معدلات العلمنة وتآكل الأسرة» في الأوساط اليهودية (5: 457). لهذا «حارب الحاخامات البهائية بشراسة، ولا زال موقف اليهودية الأرثوذكسية هو نفسه» حتى اليوم من البهائية (5: 471). لكنه حينما أراد أن يتحدث عن البهائية في طور نشوئها الأول وجدها «شكلاً من أشكال العقيدة الإسماعيلية» (5: 469). وهذا غير صحيح على الاطلاق. فالبهائية التي ظهرت إلى الوجود سنة 1863 كانت آخر انشقاق عن الشيعة الإثني عشرية لا عن الإسماعيلية، بل هي تطوير لأفكار الفرقة الشيخية التي دانت بالزعامة للشيخ أحمد الأحسائي في القرن الماضي. وهي، في أي حال، ليست متطرفة بما تعنيه كلمة «تطرف» اليوم، بل هي مسالمة وأفرادها من دعاة التسامح والسلام.

إن الكثير من الكتّاب السذج ما زالوا يلوكون آراءهم في شأن صلة البهائية والماسونية باليهودية والصهيونية، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث والتقصي والنقد وإنعام النظر، حتى جاءت هذه الموسوعة لتقدم لهؤلاء مادة تاريخية رصينة وموثقة ونقدية عن هذا الموضوع الشائك وتبرئ، بالعلم والحقائق الصارمة، هاتين الفرقتين من الآراء القَبَلية الجاهلية. وأما الماسونية، فالمؤلف يوضح أنها عبارة عن «أنساق فكرية وتنظيمية مختلفة تماماً ولا تنتظمها وحدة» (5: 458). ففي سنة 1830 كان يوجد 52 طقساً ماسونياً. والمعروف لمن له عينان وأذنان «أنْ لا سلطة ماسونية مركزية على مستوى العالم (5: 465)، وأن الكثير من المحافل الماسونية كانت عنصرية تماماً «فالمحافل الألمانية والإسكندينافية رفضت السماح لأعضاء الجماعات اليهودية بالانضمام إليها. والمحافل الأميركية رفضت انضمام الزنوج (. . .) واستبعدت المحافل البريطانية الأعضاء المتحدرين من أصول ألمانية أو نمساوية أو مجرية أو تركية» (5: 459). وثمة دساتير ماسونية كانت «تستبعد اليهود بشكل خاص» (5: 467)، أما «الربط بين اليهود والماسونيين فهو أحد أحجار الزاوية في الدعاية النازية المضادة لليهود» (5: 467).

لماذا اختار المؤلف، إذن، الماسونية والبهائية فقط من بين «العبادات الجديدة» واستثنى «الأحمدية» وهي إحدى الفرق الحديثة التي يسميها المناوئون لها «القاديانية»؟ فإذا كانت البهائية آخر انشقاق على الشيعة الإثني عشرية، فإن «الأحمدية» هي آخر انشقاق على السُنّة ظهر في الهند بلسان فارسي مبين.

10 ـ العلمانية والإمبريالية

يسخّف الدكتور عبد الوهاب المسيري القائلين بأن العلمانية ظهرت في أوروبا بسبب فساد الكنيسة وسطوتها (1: 212). ويرى أن جميع المجتمعات الإنسانية، تقريباً، وُجد فيها فصل نسبي للدين عن الدولة. فقط في المجتمعات الموغلة في البدائية نجد أن النبي والساحر والكاهن هو نفسه رئيس القبيلة. ولاحظ أن الفارق بين المجتمعات المعَلمنة جزئياً والمجتمعات

المعَلمنة كلياً هو فارق في الزمن فقط، لأن العلمنة عملية متتالية اجتماعية وتاريخية تنتقل فيها الدولة من العلمنة الجزئية إلى العلمنة الشاملة بينما يبقى المجتمع غير علماني تماماً. فالمسيحية لم يُقضَ عليها مع ظهور الفكر العلماني، بل استمرت في وجدان الناس وفي مؤسساتهم المباشرة كالأسرة والمدرسة والكنيسة.

يبدو هذا الكلام رداً على أفكار محمد عابد الجابري الذي يطالب باستبعاد مصطلح العلمانية من قاموس الفكر العربي، لأن العلمانية، في رأيه، جزء من التشكيل الحضاري الغربي فقط الذي تطور إلى مرحلة جرى فيها فصل الكنيسة عن الدولة، بينما الإسلام، بحسب الجابري، ليس كنيسة لكي نفصله عن الدولة.

يتغافل محمد عابد الجابري، عمداً، عن الكثير من شواهد العلمانية الجزئية في المجتمعات الإسلامية. ففي معظم قوانين البلدان الإسلامية جرى التأكيد على أن «لا عقوبة بلا نص». وهذه القاعدة رحمة كبيرة بالمسلمين الذين يقعون تحت سلطة محتسب مستبد يفتقد النص الشرعي فيلجأ إلى التعزير. ثم إن عقوبة رجم الزاني والزانية ألغيت تماماً مثلما ألغيت أيضاً عقوبة قطع يد السارق وعقوبة الردة، وحُرِّم الرق وملك اليمين، وانتهى، إلى غير رجعة، فرض الجزية على غير المسلمين، وأبيح الرسم والنحت والتصوير. ويتم التأكيد، دوماً، على مبدأ المساواة بين المواطنين. ومبدأ المساواة هذا يخالف قاعدة المسلم والكتابي، ويزيل مقولة دار الإسلام ودار الكفر، فضلاً عن أن مصطلحات حديثة كالدستور والانتخاب والجمهورية وفصل السلطات باتت شائعة جداً بدلاً من المصطلحات العتيقة كالشريعة والمبايعة والخلافة وطاعة أولي الأمر... إلخ.

لكن الغريب أن يذهب الدكتور عبد الوهاب المسيري نفسه، لا محمد عابد الجابري هذه المرة، إلى أن العلمانية الشاملة والإمبريالية صنوان. فهو يرى «أن العلمانية هي النظرية والإمبريالية هي الممارسة (...) لذلك اتخذت الممارسة في الداخل الأوروبي شكل الدولة الرشيدة الديمقراطية، بينما

اتخذت شكل الاستعمار في العالم» (1: 356). ثمة في هذا الرأي تعسف ومصادرة لبعض حقائق التاريخ. فالإمبريالية استندت، في توسعها الهمجي، على الاقتصاد أساساً، وعلى الانبثاق الكبير للثورة الصناعية الثانية، بينما اكتسبت العلمانية حضورها من ظهور العلم التجريبي المنفصل عن الدين، ومن تأكيد سيادة سلطان العقل. وثمة، بلا ريب، صلة بين فلاسفة عصر الأنوار الأوروبي والعلمانية، لكن ليس ثمة أية وشيجة جلية، ولا توجد أي علاقة سببية، بين الإمبريالية والعلمانية، بل إنهما تتجاوران معاً في المكان والتاريخ فقط. واللافت أن الكنيسة تمارس نشاطها بحرية تامة وبلا أي قيود في المجتمعات العلمانية، بينما يتم تقييد دور الكثير من الجماعات الدينية واضطهادها وإلغاؤها في المجتمعات غير العلمانية. العلمانية، باختصار، حولت الإنسان إلى مركز للكون بدلاً من أن يكون الدين هو مركز الكون.

يثير المؤلف تساؤلات معرفية مشروعة مثل: «ماذا يحدث للإنسان في عالم بدون إله؟». وهو، في سؤاله هذا، ينشد البحث عن حداثة جديدة لا تنتهي إلى موت الإنسان والطبيعة بعدما أعلنت الحداثة، بصلف وخيلاء، موت الإله (المقدمة: ص 53). ويشعر المؤلف «أن الحداثة الغربية التي تدور في إطار العقلانية واللاعقلانية المادية والعلمانية الشاملة قد أدخلت الجنس البشري بأسره في طريق مسدود» (المقدمة: 53). ولهذا يدشن إنجازه الفكري هذا «كمحاولة أولية لإعادة تأسيس دراسة اليهود واليهودية والصهيونية انطلاقاً من رؤية عربية ـ إسلامية» (المقدمة: ص 53).

نتحفظ عن اتهام العلمانية والحداثة بجريمة إدخال الجنس البشري بأسره في طريق مسدود. فهذا الضرب من الاتهام نوع من التفكير الاختزالي الذي ينقده المؤلف نفسه، ذلك لأن الرأسمالية في أطوارها المختلفة، هي من أدخل الجنس البشري في مأزقه الراهن، بينما العلمانية والحداثة والعلم والديمقراطية، وإن تكن تطورت في عصر الرأسمالية، فهي منجزات بشرية أولاً وأخيراً مثلها مثل «حقوق الإنسان» و«سيادة القانون» و«المساواة» فلا يمكننا، إذا أردنا أن نكنس أمام بيتنا، أن نرمي كل شيء في مستوعب

النفايات. ثم إننا نحترس من «الرؤية العربية الإسلامية» التي يحاول المؤلف تأسيسها لدراسة اليهود؛ فنحن، وإياه، مندوبون لتأسيس «رؤية علمية عربية» تدرس اليهود واليهودية والصهيونية دراسة علمية نقدية، لا إلى «رؤية عربية إسلامية» محكومة سلفاً بيقينيات فقهية مقدسة، أي مضادة للعلم والتفكير النقدي. ولعلها صدمة الغرب، بل صدمة الحداثة، التي أرغمت المؤلف على تدشين رحلة «الارتداد» من الماركسية إلى الإسلام.

ملاحظات ختامية

أ ـ لا تتضمن الموسوعة قائمة ببليوغرافية بالمراجع المستخدمة. صحيح أن المؤلف قدم حججه ودفوعه الشكلية في عدم إيراد المراجع في كل مدخل، لكن كان عليه أن يسرد قائمة بالمراجع في نهاية الموسوعة تسهيلاً لكثير من الأمور العلمية التي لا يمكن الاستغناء عنها في مثل هذا العمل الكبير والمهم. فمثلاً ورد اسم «حفني» في (5: 333). وقد حرنا في أمر هذا الاسم؛ أهو الدكتور قدري حفني المتخصص بعلم النفس والذي ألف ثلاثة كتب مهمة جداً هي: «تجسيد الوهم» (القاهرة: دار الأهرام 1971) و«دراسة في الشخصية الإسرائيلية: الإشكنازيم» (القاهرة: جامعة عين شمس 1975) و«الإسرائيليون من هم؟» (القاهرة: مكتبة مدبولي 1980) أم هو الدكتور عبد المنعم الحفني صاحب «الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية» (بيروت: دار المسيرة 1980)؟

ب ـ يرد اسم «ابن نجريلة» بالجيم (4: 62) ثم يرد مرة أخرى بالغين «ابن نغريلة» (4: 250)، وكان يجب توحيد صيغة الاسم. والصحيح: ابن النغريلة.

ج ـ ورد اسم «بيت شان» (4: 84). والصحيح: بيسان تماماً مثلما نكتب الخليل بدلاً من «حبرون» ويافا بدلاً من «يافو» وأريحا بدلاً من «جيريكو» والقدس بدلاً من «أورشليم».

د ـ جاء اسم «سيمون» أكثر من مرة (4: 118 و230)، وكان من الأفضل إيراده بصيغة «شمعون». فالعين موجودة في اللغة العبرية، وهو يلفظ هكذا تماماً بالعبرية فنقول شمعون بيريز وليس سيمون بيريز أو شيمون بيريز.

هـ ـ جاء في (4: 148) كلمة «عسقلون». والصحيح: عسقلان.

و ـ ورد اسم «باركوخبا» (4: 230). وفسره المؤلف بأنه «ابن النجم». والأصح: ابن الكوكب لأن كوخبا هي كوكب بعد إمالة الكاف الثانية إلى خاء.

ز ـ وردت عبارة «قبر أستير وموردخاي في حمدان» بالحاء (4: 216). والصحيح: همذان بالهاء وهي من أقاليم فارس.

ح ـ ترجم المؤلف كلمة «الإنجيل» إلى «خبر طيب» (5: 89). أما كان من الأجدى أن تترجم إلى «البشارة» وهي شائعة جداً لدى المسيحيين ومنها عيد البشارة وسيدة البشارة وكنيسة البشارة؟

ط ـ وردت عبارة «الحاخام الصهيوني القلعي» (5: 168). وحبذا لو كان أورد اسمه بالكامل: يهودا القلعي. وهو، أيضاً، يذكر اسم الشاعر «أنطوان أرتو» (5: 437). والصحيح: أنطونان (أو أنطونين) آرتو.

ي ـ ورد اسم «هرميس تريسميجيستوس» (5: 461). وهذه الصيغة صعبة الحفظ والنطق، مع العلم أن صاحبها شديد الشهرة ويدعى «هرمس المثلث العظمة». وتذكر المصادر أنه هو نفسه النبي إدريس.

ك ـ ورد مصطلح «الروزيكروشيانية» (5: 461). ولعل من الأفضل لو ورد بصيغة «الصليب الوردي».

ل ـ جاء اسم أحد البهائيين بصيغة «شوجي أفندي» بالجيم (5: 469 و471). والصحيح: شوقي أفندي رباني بالقاف.

م ـ يذكر أن قرار التقسيم صدر عام 1948 (1: 26)، والصحيح أنه صدر في 29/ 11/ 1947.

ن ـ وردت مادة «البيتار» مكررة مرتين في الصفة 141 من الجزء السابع وفي الصفحة 258 من الجزء السادس.

المراجع

1 ـ بطرس عبد الملك (وآخرون)، «قاموس الكتاب المقدس»، بيروت: مكتبة المشعل، 1981.

2 ـ جورج بوست، «فهرس الكتاب المقدس»، دار الثقافة، 1996.

3 ـ أسعد رزوق، «التلمود والصهيونية»، بيروت: دار الناشر، 1991.

4 ـ كميل منصور «الولايات المتحدة وإسرائيل: العروة الأوثق»، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية 1996.

5 ـ أحمد البغدادي، «شواهد علمانية في دول أهل الإسلام»، جريدة «السياسة» (الكويت)، 16/ 7/ 1997.

6 ـ صقر أبو فخر، «سبعة أوهام عن اليهود»، جريدة «الحياة» (لندن)، 12 و13 و14/ 11/ 1997.